مركز دراسات المعرفة والحضارة

سلسلة حوارات

2021

قضايا علم مقارنة الأديان ومسألة المنهج

حوار مع:

الأستاذ الدكتور سعيد كفايتي

أستاذ اللغة العبرية وعلم مقارنة الأديان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

فاس

المغرب

حاوره:

الحسن حما

جميع الحقوق محفوظة © 2021

All rights reserved © 2021

بين يدي الحوار

حظيت دراسة الدين من منظور ابستمولوجيا علم تاريخ الأديان باهتمام متزايد في العالم العربي، لما له من أهمية معرفية وراهنية حضارية، خاصة مع التطور الحاصل في منجزه المنهجي، سواء في الكتابات العربية والإسلامية أو مع الدراسات الغربية التي طورت مباحثه ومناهجه بشكل كبير. وتزداد راهنيته وحاجته أكثر مع ما يشهده العالم من عنف، وحروب، وصرعات سياسية، واجتماعية.

وما يعزز حضور قضايا ومناهج علم تاريخ ومقارنة الأديان في بنية المعرفة الأكاديمية العربية، التطور الكبير الحاصل في مباحثه التي طورها الغرب، رغم انغلاقه وتعصبه، خاصة الدراسات التي تحمل الطابع اللاهوتي الجدلي الخصامي، بالرغم من الجهود الكبيرة التي بدلت لإحداث تحول في منهجية دراسته إلا أن مؤرّخي الأديان الغربيون صنعوا هويّات في المشرق وألغوا أخرى، ضمن مسالك أبحاث صبّت في معادلات هيمنة سياسية وهو ما يضر بحقيقته العلمية ويؤثر على مسلكياته النظرية التي أثرت في الإنتاج العربي في مجال مقارنة الأديان، مثل هذه الإشكالات تفرض على الباحثين العرب بدل جهود مضاعفة لتجاوزها منهجياً، وفي الوقت ذاته الاندراج ضمن مساقات الكتابات الإسلامية الأولى التي أبدعت في أجوبتها ضمن سقفها المعرفي والحضاري.

إن البحث في الجوانب النقدية التي تتميز بها الكتابات الإسلامية الأولى في نقدها للأديان ليس بحثاً تأصيليا، لتأكيد أفضليتها أو سبقها المعرفي، أو انتصاراً لها ضد الإنتاجات الغربية، إنما القصد الكشف عن بعض نظراتها المنهجية وأبعادها التجديدية، بنفس البحث عن الجوانب المشرقة، التي يمكن من خلالها للعقل الإسلامي المعاصر استئناف جهود البناء وإعادة النظر في العوائق الابستمولوجية، التي تعيق تطور المعرفة الإسلامية، بالشكل الذي يجعلها قادرة على تجاوز تحديات الواقع المعاصر، نظراً لما تحتوي عليها مثل هذه الكتابات من قوة منهجية ومعرفية، وأساساً بالنظر لحاجة سياقنا المعاصر للدراسات المهتمة بتعزيز المشرك الديني والإنساني.

وفي هذا الإطار يندرج هذا الحوار مع الأستاذ الدكتور سعيد كفايتي من أجل فهم سليم للتطور الحاصل في علم الأديان بصفة عامة ومقارنة الأديان بشكل خاص، مع التركيز على الجهود العربية في هذا المجال وخصوصيتها المعرفية، والنظر في التحديات التي تقف دون العناية بهذا المبحث في الجامعات العربية بالشكل المطلوب.

والدكتور سعيد كفايتي هو أستاذ اللغة العبرية وعلم مقارنة الأديان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، رئيس فريق البحث في علم مقارنة الأديان، مختبر الخطاب

والإبداع والمجتمع، ومنسق ماستر اللغات والحضارات الشرقية ومقارنة الأديان.

من كتبه المؤلفة:

- المكان المسرحي: تحولات معمارية وسينوغرافية، مطبعة سيندي، مكناس، 1997 (سعيد كفايتي وآخرون).

- أعمال ملتقى فاس الدولي الأول للدراسات الحامية السامية، منشورات كلية الآداب، سايس، فاس، 1998 (إشراف سعيد كفايتي ومحمد المدلاوي وفؤاد ساعة).

- موسوعة الديانات السماوية: الكلمات المفاتيح (اليهودية)، منشورات مختبر حوار الحضارات ومقارنة الأديان، كلية الآداب، سايس، 2011 (إشراف سعيد كفايتي ومحمد زهير).

- الحوار في الإسلام: الدروس المستخلصة، منشورات مقاربات، فاس، 2016.

- دراسات في النص الديني المقارن، المركز الأكاديمي للأبحاث، تورنتو، سلسلة أديان مقارنة، 2017 (تقديم وتنسيق د سعيد كفايتي ود كريمة نور عيساوي).

- البحث عن عزرا كاتب التوراة، المركز الأكاديمي للأبحاث، تورنتو، سلسلة أديان مقارنة، 2017 (تقديم وتنسيق د سعيد كفايتي).

- أحمد الذي يطير (مجموعة قصصية)، منشورات الموكب الأدبي، 2015

- له العشرات من المقالات بالعربية والفرنسية في مجال اللغة العبرية والتراث اللغوي اليهودي ومقارنة الأديان.

المحور الأول: حقل مقارنة الأديان في الدرس الجامعي

س1. بداية فضيلة الدكتور سعيد كيفايتي باعتباركم من المؤسسين لحقل تاريخ الأديان في الجامعة المغربية، كيف تنظرون للتطور الحاصل في تدريس هذه المادة بالجامعة المغربية؟ وهل بدأنا نقترب فعلاً من تأسيس ما تسمونه بـ"المدرسة المغربية في علم مقارنة الأديان"؟

لا خلاف في أن لعلم مقارنة الأديان أصولا في التراث العربي الإسلامي. وهذا موضوع آخر قد تأتي المناسبة للحديث عنه. غير أن تأسيس هذا العلم وفق تصور جديد، تزامنا مع ظهور علوم جديدة أثرت كثيرا في مضامينه ومناهجه، هو وليد القرن التاسع عشر والابن الشرعي لبعض الجامعات الغربية التي هيأت له الظروف كاملة لكي يتطور، ويصبح علما مستقلا له أعلامه ومدارسه، ومؤسساته الأكاديمية، ومجلاته، وطلبته. لم تعرف الجامعات العربية والإسلامية هذا العلم إلا بعد ذلك بعقود من الزمن. ولربما كانت الجامعة المصرية سباقة إلى إدراجه في مناهجها الدراسية. وهنا نستحضر الشيخ أمين الخولي الذي قام منذ سنة 1935 بتدريس مادة تاريخ الملل والنحل لطلاب كلية أصول الدين بالأزهر. وكان حصيلة هذا التدريس كتابه الهام تاريخ الملل والنحل المكون من جزأين. ففي الجزء الأول اعتنى بإرساء دعائم المنهج العلمي في دراسة تاريخ الملل والنحل، وفي الجزء الثاني سعى إلى تطبيق هذه المنهجية على دراسة اليهودية.

وشهد هذا العلم في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي تطورا ملموسا على مستوى النشر تأليفا وترجمة؛ حيث برزت أسماء باحثين آخرين مثل عباس بيومي الذي ترجم كتاب "المدينة العتيقة" من الفرنسية إلى العربية لمؤلفه فوستيل دى كولانج *Fustel de Coulanges* و أحمد زكي بدوي صاحب كتاب "تاريخ التطور الديني" و علي سامي النشار مؤلف كتاب "نشأة الدين" وأحمد عنايت صاحب كتاب "العقائد والديانات في أفريقيا السوداء" لمؤلفه هيو برديشان *Hubert Deschamps* وغيرهم ممن ذكرهم طه الهاشمي سنة 1963 تاريخ صدور كتابه "تاريخ الأديان وفلسفتها".

> لا خلاف في أن لعلم مقارنة الأديان أصولا في التراث العربي الإسلامي.

المؤسف أن انتكاسة وقعت فيما بعد لعلم مقارنة الأديان. ويعود ذلك إلى بالدرجة الأولى إلى سيادة نوع من الفكر الإطلاقي في الحياة السياسية، والذي غذته الأنظمة القائمة. وكان من الضروري أن يخفت صوت علم الأديان لاسيما في ظل أنظمة حكم اشتراكية لها موقف معلن أو مُضمر من الدين بشكل عام. ولم يكن موقف حركات الإسلام السياسي من علم مقارنة الأديان بأحسن حالا. فمع بزوغ أولى أنوار ما يُسمى بالصحوة الإسلامية تولدت لدى الكثيرين ممن ينتسبون إلى هذا التيار الديني السياسي حساسية غامضة، لا سبيل لتفسيرها، اتجاه هذا العلم الشريف، وكأن الباحث في الأديان مرتد أو ضال. وليس صدفة أن يتجه البعض نحو محاولة تأصيل هذا العلم في التراث العربي

الإسلامي، بحثا عن الكتابات التي يُمكن أن تُدرج، بشكل أو بآخر، في حقل الدراسات الدينية المقارنة.

إن هذه الصورة السلبية التي تُلصق ظلما وعدوانا بعلم مقارنة الأديان لا تزال تجد أحيانا طريقها إلى الظهور في الخطاب الوعظي أو الإيديولوجي. وسيلزمنا بعض الوقت للتأكيد على أنه لا تعارض على الإطلاق ما بين علم مقارنة الأديان بصفته علما مستقلا نشأ في القرن التاسع عشر في أوروبا وما بين الإيمان، وأن ثمة فرقا شاسعا ما بين هذا العلم وما بين علم اللاهوت *Théologie* الذي يُعرف حسب أندريه لالاند بأنه علم الله، علم صفاته، وصلاته بالعالم والإنسان. وربما بسبب هذا الالتباس أو بسبب أصوله الشبه علمانية، إن صح هذا التعبير لم يتقدم البحث في علم الأديان، وذلك على الرغم من إدراجه مادة أو مجزوءة مستقلة في النظامين الجامعيين المغربيين القديم منه (ما قبل 2003) والجديد (ما بعد 2003)، وعلى الرغم من وجود كلية أصول الدين التي تختص حسب المشرع بكل ما يتعلق بالتعليم العالي، والبحث في ميدان تاريخ الديانات والعلوم المرتبطة بها. فواقع الحال يُبين الانحراف نحو الجدل والمناظرات وعلم الكلام، والاكتفاء بما أسهم به العلماء المسلمون في ميدان علم الأديان. غير أن التحاق أساتذة جدد بهذه المؤسسة في العشر سنوات الأخيرة يُبشر بخير كثير. وينبغي التنويه بمؤسسة دار الحديث الحسنية التي أدخلت بدءا من 2009 ضمن برنامجها التربوي مادة علم مقارنة الأديان. و لا يزال دعم هذا العلم واللغات المرتبطة (عبرية، يونانية، لاتينية) به مستمرا في جامعة القرويين والمؤسسات التابعة لها.

و كان لعلم مقارنة الأديان بعض الحضور في بعض وحدات السلك الثالث أو في الماستر، وذلك في كل من تطوان على يد الأستاذ عبد العزيز شهبار أو في الرباط على يد أستاذنا أحمد شحلان في وحدة الدكتوراه (الآداب واللغات الشرقية: الإبداع واللغات) والأستاذ إدريس اعبيزة وغيرهم من أعضاء الجمعية المغربية للدراسات الشرقية، ثم الأستاذ محمد أمين السماعيلي في ماستر المذاهب العقدية في الديانات أو في بني ملال على يد الأستاذ سعيد شبار في ماستر الحوار الديني والحضاري وقضايا التجديد في الثقافة الإسلامية أو في الدار البيضاء على يد الأستاذ مصطفى أبو هندي في وحدة مستقبل الأديان والمذاهب الدينية في حوض البحر الأبيض المتوسط. هذا بالإضافة إلى ظهور بعض مراكز البحث الجامعية أو بعض الجمعيات العالمة أو بعض المختبرات التي بدأت ترى النور تباعا تزامنا مع الترويج إعلاميا لما أصبح يُعرف بحوار الأديان أو الثقافات. وكانت تجربة ماستر الدراسات السامية ومقارنة الأديان الذي أسسه عبد ربه سنة 2007 فريدة من نوعها لأنها اتخذت لنفسها منذ البداية طريقا واحدا لم تحد عنه ألا وهو البحث في الأديان، ولا شيء غير الأديان، خاصة السماوية منها. وحاولتُ في حدود الموارد البشرية التربوية

وسيلزمنا بعض الوقت للتأكيد على أنه لا تعارض على الإطلاق ما بين علم مقارنة الأديان بصفته علما مستقلا نشأ في القرن التاسع عشر في أوروبا وما بين الإيمان.

المتوفرة آنذاك بجامعة سيدي محمد بن عبد الله أن أتيح للطلبة التعمق في دراسة اللغة العبرية إلى درجة تمكنهم من الاطلاع على النصوص الدينية الأصلية، والاطلاع على الحضارات الشرقية القديمة، والتعرف على اليهودية والمسيحية، والإلمام بمناهج نقد الكتاب المقدس. وكانت مناسبة للعودة إلى التراث العربي الإسلامي، وتحديدا إلى الأعلام الذين اشتهروا بدراستهم للأديان الأخرى. ونبهنا طلبتنا إلى أهمية التمكن من اللغات الأكثر انتشارا، خاصة الإنجليزية. وفي تجربة 2016 أسسنا ماستر اللغات والحضارات الشرقية ومقارنة الأديان وأضفنا بعض المواد من قبيل فلسفة الدين وعلم اجتماع الأديان والدين والفن والرمز الديني في الأدب. والحصيلة الإجمالية منذ 2007 حتى 2021 هي أكثر من ثلاث مائة طالب متخرج من الماستر كلهم أنجزوا بحوثا في الأديان. والكثير منها طُبع في دور نشر عربية وغربية.

أما التجارب الأخرى فكانت في أغلبها موزعة بين أكثر من حقل معرفي (الفكر الإسلامي، العقيدة، الفكر العربي المعاصر..). غير أننا نعتز كثيرا بخريجيها، لاسيما تجربة الأستاذ سعيد شبار الذي كان لنا شرف مناقشة الكثير من طلبته في الدكتوراه الذين تابعوا تكوينهم في الماستر، وأنجزوا أطاريح لها قيمة علمية كبيرة. وأذكر هاهنا أطروحة الطالب الحسن حما الموسومة "بمركزية الإنسان في الأديان التوحيدية الإبراهيمية" وأطروحة الطالبة كريمة ارحيحل التي عنوانها "التهويد المبكر لنصوص الأناجيل (مرقس، لوقا، يوحنا) في ضوء النقد الكتابي" وغيرهما.

وما هي الإضافة المعرفية التي تساهم بها دراسة مقارنة الأديان في الدرس الجامعي ضمن حقل الدراسات الإسلامية؟

إن استنبات علم مقارنة الأديان في فضاء الجامعة المغربية من خلال تجربة بعض الماسترات أعطى لهذا العلم "شرعية" كان يفتقدها في وقت سابق.

كانت هناك دائما مادة علم مقارنة الأديان أو ما شابه ذلك في شعبة الدراسات الإسلامية. لكن لا أحد كان واعيا بأهميتها. وكان أمر تدريسها يوكل في الغالب الأعم إلى بعض الأساتذة الذين لا يعتبرونها ضمن مشاريعهم البحثية، ويكتفون فقط بترديد ما جاء في كتب الأقدمين أو في كتابات أحمد شلبي ومحمد أبو زهرة أو غيرهما. غير أن استنبات علم مقارنة الأديان في فضاء الجامعة المغربية من خلال تجربة بعض الماسترات أعطى لهذا العلم "شرعية" كان يفتقدها في وقت سابق، خاصة حينما أدرك الكثيرون أن علماءنا المسلمين لم يجدوا أي حرج في معرفة الأديان الأخرى، وفي الاطلاع على كتبها الدينية، وكان من الضروري أن يلتفتوا إلى هذا الأمر في سياق ثقافي وعلمي يُشجع على تعزيز سبل الحوار الثقافي والحضاري. أما الحديث عن مدرسة مغربية في علم مقارنة الأديان فمرده إلى وفرة المادة العلمية المتعلقة بهذا التخصص، والتي تتمثل في العشرات من الأطاريح التي نوقشت، والعشرات من الكتب التي صدرت، والمئات من المقالات العلمية المحكمة. وما هو جدير بالملاحظة أن نسبة كبيرة من هذا الإنتاج الأكاديمي

يتناول الأديان من منظور يختلف عن التجارب العربية الأخرى. وليس صدفة أن يُخصص مدير دار نشر المركز الأكاديمي للأبحاث بتورنتو، كندا سلسلة أطلق عليها اسم أطاريح مغاربية، وأن تكون أولى إصداراتها في علم مقارنة الأديان، ومن أعضاء فريق البحث في علم مقارنة الأديان، وخريجي جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس. عنوان الكتاب الأول التوراة من التدوين إلى النقد، دراسة تطبيقية في سفر التكوين لقضايا الخلق والخطيئة والطوفان وبرج بابل لصاحبته الدكتورة كريمة نور عيساوي، وعنوان الكتاب الثاني الأصولية وخطاب النهايات في الديانات التوحيدية الثلاث لصاحبه الدكتور مصطفى العلام.

س2. من إسهاماتكم النوعية تأسيس فريق البحث في علم مقارنة الأديان بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس هل لكم أن تقربنا من منهجية اشتغال الفريق وأهدافه وما هي التحديات والعوائق التي تواجهه في البحث في مجال مقارنة الأديان؟

كانت لنا منذ البداية استراتيجية واضحة في الاشتغال تقوم أولا على تأطير الطلبة في الماستر تأطيرا جيدا فيه الكثير من الصرامة. وجمعنا ما بين تكوين الطلبة وإشراكهم أيضا في تنظيم الندوات والملتقيات، والقيام بزيارات ميدانية إلى بعض أماكن العبادة اليهودية والمسيحية. وبمجرد حصولهم على الماستر يجد بعض الطلبة ممن تتوفر فيهم الشروط المطلوبة الباب مفتوحا للتسجيل في الدكتوراه في محور الدراسات الإسلامية، تخصص علم مقارنة الأديان. وفي هذه المرحلة يصبحون تلقائيا أعضاء في فريق البحث في علم مقارنة الأديان. ركزنا في الفريق على العمل الجماعي، والتشجيع على النشر. ولا أبالغ إذا قلت أن حظ طلبتي من النشر سواء على شكل كتب أو مقالات محكمة أو مصنفة كان كبيرا. هذا بالإضافة إلى إسهامات أعضاء الفريق من الأساتذة أمثال الأستاذة حنان السقاط والأستاذ ميمون داودي وعمر مومني ومولاي إدريس المعروف وكريمة نور عيساوي وعبد ربه. وقطعنا أشواطا لا بأس بها في إنجاز موسوعة الديانة اليهودية التي تحتوي على أكثر من أربع مائة مدخل. وكنا قد نشرنا في وقت سابق كتاب "الديانة اليهودية: الكلمات المفاتيح". وكان من المفروض أن تتبعه منشورات أخرى. لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. ومن الإنجازات الكبرى التي حققها الفريق تنظيمه لملتقى الطلبة الباحثين في علم مقارنة الأديان التي كانت تترأس لجنته التنظيمية الدكتورة كريمة نور عيساوي.

> الحديث عن مدرسة مغربية في علم مقارنة الأديان فمردّه إلى وفرة المادة العلمية المتعلقة بهذا التخصص، والتي تتمثل في العشرات من الأطاريح التي نوقشت، والعشرات من الكتب التي صدرت، والمئات من المقالات العلمية المحكمة.

الملتقى الوطني الأول للباحثين في علم مقارنة الأديان: مفاهيم وقضايا ومقارنات، 28 ماي 2015

الملتقى الوطني الثاني للباحثين في علم مقارنة الأديان: مفاهيم وقضايا ومقارنات، 10- 1 مارس 2016.

الملتقى الدولي الثالث للباحثين في علم مقارنة الأديان، معرفة الآخر خطوة نحو الحوار، 16-17 مارس 2017

الملتقى الدولي الرابع للطلبة الباحثين في علم مقارنة الأديان في موضوع، ترجمة النصوص الدينية خطوة نحو معرفة الآخر، 13-14 أبريل 2018 بالتعاون مع مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة.

الملتقى الدولي الخامس للطلبة الباحثين في علم مقارنة الأديان: المشترك الديني والإنساني خطوة نحو الحوار، 4-5 أبريل 2019.

كانت الدورات الأولى وطنية يُشارك فيها أكثر من أربعين طالبا من جامعات مغربية مختلفة، وما لبث أن تحول إلى ملتقى دولي اكتسب في وقت وجيز سمعة طيبة لاسيما بعد أن بدأنا باستضافة باحثين متخصصين في علم مقارنة الأديان لفتح جسور التواصل بين الطلبة ومؤطريهم في هذا التخصص. لقد خلق هذا الملتقى ديناميكية وأكسب الفريق شهرة دولية، وأصبح مصطلح علم مقارنة الأديان على كل لسان. وليس صدفة أن يتبوأ مختبر الخطاب والإبداع والمجتمع بفضل فريق البحث في علم مقارنة الأديان المراتب الأولى مرتين متتاليتين على مستوى جامعة سيدي محمد بن عبد الله. إن كل هذه الجهود التي بُذلت كان الهدف منها التحسيس بأهمية هذا العلم تمهيدا لإنضاج فكرة تأسيس كلية أو معهد للأديان على غرار البلدان الغربية.

بخصوص الأطاريح سواء تلك التي نوقشت أو التي لا تزال في طور الإعداد فقد تناولت كلها مواضيع من صميم علم مقارنة الأديان. أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر "المتخيل المسيحي حول يسوع مقاربة سوسيو-تاريخية لكريستولوجيا الجماعات المسيحية المبكرة خلال القرن الأول الميلادي" و"المسيحية المبكرة وتطور عقائد الكتاب المقدس، عقيدة الصلب أنموذجا"، و"الحرفية والتأويل ومستويات التلقي في النص الديني (القرآن الكريم أنموذجا)". وكان الشعار هو الحرص على الجودة، وتجنب الأحكام المسبقة، والاستفادة من آخر ما استجد في هذا الميدان.

وكان الهدف الذي وضعناه نصب أعيننا هو دراسة الأديان دراسة موضوعية، والانتقال تدريجيا من المواضيع العامة إلى مواضيع أكثر دقة متوسلين في سبيل تحقيق ذلك الكتابات الغربية. غير أننا بقينا دائما متمسكين بتراثنا العربي الإسلامي بما في ذلك المكونات المسيحية واليهودية وغيرها.

وعلى الرغم من كل النجاح الذي حققناه فإننا لم نكن نشتغل دائما في ظروف مواتية بسبب عوائق كثيرة كانت تقف حجر عثرة أمام نجاح المشروع. قد يأتي الوقت المناسب للإفصاح عنها بكثير من التفصيل في كتاب مستقل بدأنا في تحرير فصوله الأولى. غير أننا لم نستسلم. ويوما بعد يوم كان الفريق يتعزز بعناصر جديدة، وبالتحاق بعض الأعضاء إلى هيئة التدريس في جامعات مغربية ومغاربية وغربية (كريمة نور عيساوي، تطوان، فؤاد لغزيزر، سطات، محمد عمي، موريطانيا،

ياسين يحياوي، بحث ما بعد الدكتوراه، ألمانيا..) وهو ما سيُفضي إلى خلق شبكة واسعة تستقطب الآن أعضاء الفريق وباحثين آخرين كُثر من داخل المغرب وخارجه يتابعون بحب كبير ما نقوم به، ونشعر أنهم قريبون إلينا، ويتطلعون دوما إلى التعاون معنا. وهذه نعمة نحمد الله عليها. ونأسف في المقابل للبعض ممن تنكر للفريق وتعامل معه ببراغماتية مقيتة.

المحور الثاني: مقارنة الأديان القضايا والمناهج

بُذلت في الدراسات الغربية جهود كبيرة لإحداث تحول في منهجية دراسة علم الأديان رغم ما يَسِمُها من الطابع اللاهوتي الجدلي الخصامي، الأمر الذي ساهم فيه مؤرّخو الأديان الغربيون؛ حيث صنعوا هويّات في المشرق وألغوا أخرى، ضمن مسالك أبحاث صبّت في معادلات هيمنة سياسية وحضارية.

س3. كيف تنظرون إلى هذا الأمر؟

نشأ تاريخ الأديان أو علم مقارنة الأديان في الغرب باعتباره حقلا معرفيا جديدا عقب الكشف عن حقيقة قد تبدو بالنسبة إلينا نحن المسلمين غريبة، ألا وهي أن الآخرين (من غير المسيحيين) لهم أديان خاصة بهم، ولهم طقوس يُمكن أن نعتبرها دينية. وكان من الضروري أن تُدعم هذه الحقيقة في نهاية القرن الثامن عشر بالتطلع إلى إمكانية دراسة الظواهر الدينية دراسة غير ثيولوجية ولا طائفية أو بعبارة أخرى كان الأمل معقودا على دراسة الأديان الأخرى بمعزل عن معتقدات دارسيها من الغربيين. وفي نهاية القرن التاسع عشر نضجت كثيرا فكرة النظر إلى جميع الديانات، بما في ذلك المسيحية، على قدم المساواة. واقترن هذا الاتجاه في الوقت نفسه بانتزاع علم مقارنة الأديان من ضيق الفكر الدوغمائي ليتلقفه علم التاريخ الذي كان يعيش آنذاك أوج ازدهاره. لقد كان هناك منذ البداية نفس علماني بتعبير أحد الباحثين الغربيين. ومن هنا جاءت تسمية علم الأديان أو علم مقارنة الأديان أو تاريخ الأديان. وكلها تشترك في النظر إلى هذا العلم الجديد بأنه حقل معرفي غير ثيولوجي وغير جدلي. غير أن هذا السعي الحثيث نحو الموضوعية لم يخل مع ذلك من السقوط في شرك أو قوقعة اعتبار المسيحية هي الدين الأفضل أو الأكثر كمالا. فماكس ميللر *Max Müller* لم ير أي حرج في أن يُطلق على علم مقارنة الأديان اسم الثيولوجيا المقارنة، وأن يشير إلى أن الأديان الكبرى تتوافق تماما مع العقيدة المسيحية التي يعتبرها نتيجة مسار طويل من التطور. والأمر الذي يجب أن ننتبه إليه هو أن هذا العلم ظهر إلى الوجود في مرحلة تاريخية شهدت تطورا غير مسبوق لجملة من العلوم التي كان لها أثر حاسم في مساره. وسيكون من غير المجدي أن ننظر إليه بمعزل عن علاقاته المتشابكة باللسانيات التاريخية والنحو المقارن، وعلم الأساطير، والتاريخ، والنقد الأدبي. وإذا

نشأ تاريخ الأديان أو علم مقارنة الأديان في الغرب باعتباره حقلا معرفيا جديدا عقب الكشف عن حقيقة قد تبدو بالنسبة إلينا نحن المسلمين غريبة، ألا وهي أن الآخرين (من غير المسيحيين) لهم أديان خاصة بهم، ولهم طقوس يُمكن أن نعتبرها دينية.

كنا نُشيد بعلم مقارنة الأديان، وبمناهجه المختلفة فإننا في الوقت نفسه واعين ببعض الانحرافات التي قد يقع فيها أحيانا بعض الباحثين الغربيين سواء في مقاربتهم للإسلام التي تشوبها مسحة استشراقية أو في تورط البعض منهم في محاولات يائسة للتنصير أو غير ذلك مما لا يتسع المجال لذكره.

س4. من أهم القضايا الرئيسة في هذا التخصص مسألة مناهج دراسة الأديان؛ ما هو التجديد والتطور الحاصل على المستوى المنهجي؟

لا أحد يُنكر أهمية المنهج في أي علم أو في أي نشاط فكري. ومن المفارقات أن علم مقارنة الأديان عانى كثيرا، ومنذ بداياته الأولى، من غياب منهج متفق عليه. وهو ما أفضى إلى استعماله لمناهج متعددة ومختلفة. ففي الوقت الذي كان فيه ماكس ميللر يرى أن تطبيق المنهج الفيلولوجي على النصوص الدينية، وتحديدا الأساطير، مع نوع من المقارنة كفيل بأن يهدي الباحثين إلى إدراك المعرفة المطلوبة. كانت هناك مقاربات متعددة تسعى كل واحدة منها للكشف عن جوانب غامضة أو مجهولة متعلقة بالدين. أقصد بالدرجة الأولى الفلسفة وعلم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع، وعلم الآثار والفنون الشعبية والأنثروبولوجيا. يمكن أن نلخص أبرز هذه المناهج في المنهج الفيلولوجي، والمنهج التاريخي، والمنهج التطوري، والمنهج المقارن، والمنهج النفسي، والمنهج الاجتماعي والمنهج الظاهري.

س5. في مجال مقارنة نصوص الدينية تحضر دائما مسألة "التقديس" وهي مرتبطة بالأديان نفسها كيف يمكن للباحث تجنب التأثيرات المتوقعة لعنصر التقديس من أجل القيام بدراسة موضوعية؟

تتردد كثيرا عند الباحثين الغربيين بعض الأفكار الشائعة من قبيل "الاستعداد للتنازل عن عقيدتك الخاصة ليحل محلها اهتمامك بالدين الآخر مع الإيمان بأن فيها شيئا من الحق" أو "التأكيد على من يريد الاشتغال بعلم مقارنة الأديان بضرورة التجرد من لاهوتيته" أو "التنازل النسبي عن العقيدة الخاصة والتعاطف المعقول مع الأديان موضوع البحث". وإذا كانت "الحيادية" في دراسة الأديان أمرا مطلوبا. إلا أنها قد لا تجد طريقها نحو التحقق في السياق الإسلامي حيث لا أحد من الباحثين المسلمين، باستثناء المتملص من انتمائه إلى الإسلام، يقبل النظر إلى الإسلام باعتباره مجرد دين بين الأديان الأخرى، فيه شيء من الحق وشيء من الباطل. إن مفهوم الحيادية نفسه مفهوم نسبي. ومن الضروري أن يكون لدينا وعي بأن علم مقارنة الأديان ظهر في الغرب حيث لم تكن المسيحية تعترف بالأديان الأخرى، وشكل الاعتراف بها، واتخاذها موضوعا للدراسة خطوة أساسية في تاريخ نشأته. أما الإسلام فيُقر بالوجود الفعلي للأديان الأخرى، ولا يضيره في شيء أن يسمها بأنها باطلة. وشتان ما بين هذين الموقفين المتباينين. ومن الآثار الناجمة عن ذلك أن التراث العربي الإسلامي حافل بالكتابات التي

ومن المفارقات أن علم مقارنة الأديان عانى كثيرا، ومنذ بداياته الأولى، من غياب منهج متفق عليه. وهو ما أفضى إلى استعماله لمناهج متعددة ومختلفة.

يمكن تصنيفها ضمن علم مقارنة الأديان، والتي نحن مُقصرين إلى أبعد حد في التعريف بها. وتكمن خصوصيتها في أنها لم تكن حكرا على العلماء المسلمين، بل أسهم علماء يهود ومسيحيين في تحريرها وفي صياغتها. باستطاعتنا أن نتفادى الخوض في مثل هذه القضايا الشائكة بتجنب المقارنات. ويجب التوضيح بأن مصطلح علم مقارنة الأديان قد لا يكون هو الأنسب للدلالة على هذا العلم الجديد. لكن آثرنا استعماله لجريانه على الألسن ولكيلا نجعل الباحث في حيرة من أمره يتنقل بين عدة مصطلحات. أما الخطة التي اتبعناها فتتمثل في دراسة اليهودية أو المسيحية فيما سميناه دراسات يهودية أو دراسات مسيحية. وأن الهدف المنشود هو التعرف على هذه الديانات انطلاقا من مصادرها الأصلية، وفي ضوء تفاعلها مع حضارة الشرق القديم ومدوناته. وسيكون من المجحف أن نعمد إلى عزل هذه الديانات عن تراثها الفكري والأدبي والديني. قد يبدو هذا العمل صعبا ومعقدا لأنه يتطلب من الباحث أن يكون ملما بكل هذه المعطيات. لكن ليس هناك خيار آخر. وحينما نتجاوز عتبة الإحاطة بهذا الدين أو ذاك نكون مؤهلين بعد ذلك للانتقال إلى محطة المقاربة النقدية.

المحور الثالث: حوار الأديان والتأسيس للمشترك الإنساني

س6. في نظركم كيف تساعدنا مقارنة الأديان في التأسيس للمشترك الديني والإنساني خاصة في المجال التداولي للأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام؟

نكاد نفتقد في العصر الحاضر لمجتمعات متجانسة عرقيا ولغويا ودينيا. فنحن المسلمين قد نُشكل أقلية دينية في المجتمعات الغربية أو غيرها، ولا نقبل أن يلحق الأذى إخواننا لمجرد أنهم يختلفون عن الأغلبية في الدين والمعتقد. وبقدر حرصنا على المسلمين أينما كانوا وأينما حلوا وارتحلوا لا نرضى أبدا أن نسيء في مجتمعاتنا الإسلامية إلى معتنقي ديانات أخرى سواء كانوا أصلاء في هذه المجتمعات مثلما هو الحال بالنسبة لمسيحيي الشرق أو يهود المغرب أو وافدين عليها بسبب الهجرة أو الدراسة أو السياحة. والظاهر أن موقفنا العدائي من الآخر المختلف عنا من حيث العقيدة، والذي قد يتطور لا قدر الله إلى سلوك إجرامي، ينبع في كثير من الأحيان من جهلنا بالأديان الأخرى أو معرفة مشوهة عنها. إن بعض هذه الأديان تربطنا بها أكثر من صلة، وعاشت قرونا من الزمن مع الإسلام جنبا إلى جنب، ونشترك معها أكثر من ذلك فيما يُعرف في الأدبيات الحديثة بالمشترك الديني.

> إن التراث العربي الإسلامي حافل بالكتابات التي يمكن تصنيفها ضمن علم مقارنة الأديان، والتي نحن مُقصرين إلى أبعد حد في التعريف بها.

س7. ما السبيل إذن لمقاومة خطاب الكراهية الذي يتعارض مع الإسلام دين التسامح الحق؟

لا نبالغ إذا قلنا إن علم مقارنة الأديان يفتح الباب على مصراعيه أمام نظرة جديدة للأديان خاصة حينما نُدرك أن بعض هذه الديانات تمتح من معين واحد، وفي كتبها المقدسة، على الرغم ما أصابها من تغيير وتحريف

على مدار الزمان، قبس من الوحي. ويوما بعد يوم نكتشف مثلا أن التوراة التي أعاد تأسيها القرآن الكريم في أكثر من سورة قد نجد لها نظيرا في عالم الأسفار المنحولة. وتشترك الأديان جميعها، بما في ذلك الأديان الوضعية في المشترك الإنساني. فلا أحد يتصور وجود دين يحث على السرقة أو الغدر أو يشجع على اقتراف الرذيلة. ويجب التأكيد على أن معرفة الأديان الأخرى ليست دعوة إلى الإيمان بها، وإنما هي خطوة نحو قبول الآخر، واحترام معتقداته.

س8. ما هي الآفاق العلمية والمعرفية التي يتيحها هذا العلم في وجه الإنسانية اليوم؟ وهل هناك اهتمام حقيقي بهذا العلم في الوطن العربي؟

الإنسانية في حاجة الآن إلى علم مقارنة الأديان. فتطور تكنولوجيا الإعلام والتواصل أعطى الحق لكل فرد مهما كان مستواه العلمي والدراسي متواضعا ومنحطا ليُعبر بكل حرية عن رأيه، فاتسعت رقعة الجهل، ووجد البعض شرقا وغربا الطريق ممهدا لترويج ثقافة التكفير والإقصاء واللاتسامح. ومن هنا فإن مسؤولية هذا العلم جسيمة. ومن الأدوار التي يمكن أن يؤديها هو نقل هذه المعارف إلى المقررات الدراسية لكي نخلق جيلا متمسكا بدينه وفي الوقت نفسه منفتحا على الآخر. ومن المؤسف أن الاهتمام بهذا العلم في الوطن العربي لا يزال متواضعا. هناك تجارب في المغرب والجزائر وتونس ومصر ولبنان تختلف في التصور وفي الرؤية وفي المنطلقات. وآخر تجربة هي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر التي أطلقت برنامج ماجستير الديان وحوار الحضارات. وللإشارة فقد نظم الفريق التابع لمختبر الخطاب والإبداع والمجتمع والأديان بالتعاون مع الماجستير الندوة الدولية الطلابية الأولى، ومن المرتقب أن تُنشر قريبا أعمال هذه الندوة.

س9. كيف يمكن الانتقال بعلم مقارنة الأديان في عالمنا العربي -الذي ارتبط بجزء في تراثنا بمنطق «الأفضلية الدينية» في نقده للأديان- من الطابع الإيديولوجي إلى التحليلي الموضوعي؟

من أكبر التحديات التي تواجه علم مقارنة الأديان في العالم العربي والإسلامي هو خضوعه للخطاب الأيديولوجي، وعدم قدرته على الانفلات من وطأة الجدل الديني. والملاحظ أن جزءا من الكتابات العربية المعاصرة التي تُدرج ضمن علم مقارنة الأديان لا تحمل من هذا العلم غير الاسم فقط. لهذا لا أنصح طلبتي بالعودة إليها. فمؤلفوها لا يقربون القارئ من هذه الأديان بقدر ما يكشفون عن موقفهم منها. هو موقف يخلط ما بين الصهيونية واليهودية، ولا يميز ما بين المسيحية كدين والحركات التنصيرية. وإذا كانت الموضوعية مطلبا عزيزا وصعب المنال في دراستنا للأديان فإنها لا ينبغي أن تكون في المقابل مبررا لإطلاق الأحكام الجاهزة، وللتسرع في تحليل النصوص الدينية، وللسطحية في تناول القضايا العقدية. وفي نظري لا يتحقق الانتقال من الطابع الإيديولوجي إلى التحليل

> إن بعض هذه الأديان تربطنا بها أكثر من صلة، وعاشت قرونا من الزمن مع الإسلام جنبا إلى جنب، ونشترك معها أكثر من ذلك فيما يُعرف في الأدبيات الحديثة بالمشترك الديني.

الموضوعي إلا بتأسيس برنامج لعلم مقارنة الأديان يرتكز على قراءة النصوص الدينية في لغاتها الأصلية، والتمكن من تاريخ الحضارة الشرقية القديمة، وتاريخ الكتابة، والتحقيق، والتراث العربي الإسلامي، وغيرها من العلوم الإنسانية المساعدة. هذا بالإضافة إلى الاقتناع بضرورة التمييز بين فضاء البحث العلمي وفضاء العمل السياسي ورسالته الإيديولوجية. وللأسف الشديد الكثيرون يخلطون بينهما. وعلى الرغم من كل ذلك لا يسعنا إلا الاعتزاز بباحثين عرب ومسلمين في غير المغرب مختصين في علم مقارنة الأديان أو يُعد هذا العلم واحدا من انشغالاتهم أمثال محمد بودبان في الجزائر وحمادي مسعودي في تونس وعبد القادر بخوش وأحمد خليفة حسن وإبراهيم محمد زين ومنذر الحايك وخزعل الماجدي ومحمد الهواري وغيرهم.

س10. تعترض التنظير لفلسفة التقارب أو الحوار بين الأديان عدة عوائق سواء من المنظور المسيحي أو الإسلامي في ظل إكراهات الواقع المعاصر، رغم كثرة الحوارات والمنتديات والمؤتمرات الداعية للحوار بين الأديان إلاّ أنه لازالت هناك حواجز تحول دون فهم سليم للغرب لثقافتنا وحضارتنا. ما الدور الذي يمكن أن يلعبه علم الأديان لتجاوز هذه التحديات؟ وهل بالفعل يمكن الرهان على سلطة المعرفة الدينية لتلافي هذه الفجوة؟

كلما كثر الحديث عن الحوار إلا وكان مؤشرا على أن هناك خللا ما في العلاقة بين الحضارات والثقافات. ويتألف طرفا هذه المعادلة الصعبة في الغالب الأعم من الغرب ومن الإسلام. من المعلوم أن سوء التفاهم بينهما ليس وليد اليوم، هو نتيجة طبيعية لقرون من المواجهة حينا ومن السلم حينا آخر. غير أنه يكاد أن يصل في الوقت الراهن للطريق المسدود بسبب عوامل متعددة يختلط فيها ما هو إيديولوجي بما هو سياسي وبما هو ديني. وكلانا يتحمل قسطا من المسؤولية. فالغرب، حتى وإن ادعى أنه تجرد من مسيحيته، فهو لا يزال ينظر إلى الإسلام من خلال رؤية استشراقية لم تتخلص بعد من روحها الصليبية. ومن هنا نجد تفسيرا لترويج صور نمطية عن الإسلام تختزله في ولع المسلم بسفك الدماء، وتعلقه بالنساء، وميله للخمول والكسل. وكان للعمليات الإرهابية التي أزهقت أرواح العشرات من الضحايا أثر في تنامي الإسلاموفوبيا (كراهية الإسلام). من واجبنا، ومن موقعنا كباحثين في علم مقارنة الأديان أن نصحح هذه الصورة التي لا تمثلنا، وذلك من خلال القيام بمجموعة من الخطوات. أولى هذه الخطوات التعريف بحضارتنا العربية الإسلامية، والتركيز على سمة التعدد الديني والعرقي واللغوي التي كانت ملازمة لها على امتداد تاريخها الطويل. فغالبيتنا العظمى تجهل أن تراثنا العربي الإسلامي غني بروافد مختلفة وبمكونات متعددة. وهذا دليل دامغ أن الحضارة العربية الإسلامية كانت أكثر قبولا للآخر من الحضارة الغربية المسيحية التي عاشت حروبا دينية طاحنة قرونا من الزمن.

> من أكبر التحديات التي تواجه علم مقارنة الأديان في العالم العربي والإسلامي هو خضوعه للخطاب الأيديولوجي، وعدم قدرته على الانفلات من وطأة الجدل الديني.

س11. هناك اليوم حديث عن التقارب بين الأديان الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) على أساس قاعدة

"الإبراهيمية"، كيف يمكن التأسيس للمشترك الديني والإنساني بين هذه الأديان من خلال "الإبراهمية" وبعيداً عن توظيفها السياسي؟

لا أومن كثيرا بمثل هذه الشعارات التي لها خلفياتها الإيديولوجية وسياقاتها التاريخية. لقد عاشت هذه الأديان الثلاثة في فضاء الحضارة العربية الإسلامية جنبا إلى جنب قرونا من الزمن. ولم تقع هناك على وجه العموم أزمات كبرى مثلما كان يحدث للأقليات اليهودية في الغرب المسيحي التي هُجرت مرات عديدة من موطنها، وجُردت من أبسط حقوقها. إن مثل هذه الشعارات مهما ضُخت من أجل إنجاحها أموال طائلة تموت في مهدها لأنها جاءت لتحقيق مكاسب آنية لفائدة جهة أو جهات معينة. فالتأسيس للمشترك الديني والإنساني ينبغي أن يكون منطلقه المسجد، والمدرسة، والجامعة، والإعلام.

التأسيس للمشترك الديني والإنساني ينبغي أن يكون منطلقه المسجد، والمدرسة، والجامعة، والإعلام.

نشكركم الأستاذ الفاضل الدكتور سعيد كفايتي على سعة صدركم وتفاعلكم.

مركز دراسات المعرفة والحضارة

maarifa-center.com

maarifa2011@ gmail.com

facebook.com/almaarifa.centre

جميع الحقوق محفوظة © 2021

All rights reserved © 2021

لجنة الإعلام والتواصل